مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

بحث
٧

الأزهر الشريف
حارس الثقافة الاسلامية عبر القرون

إعداد

أ.د/ عبد الفتاح مصطفى السيد غنيمه

أستاذ تاريخ وفلسفة العلوم والتكنولوجيا
ورئيس قسم الفلسفة بآداب المنوفية

محكمة تصدر عن كلية الآداب بالمنوفية

العدد الأربعون — يناير ٢٠٠٠

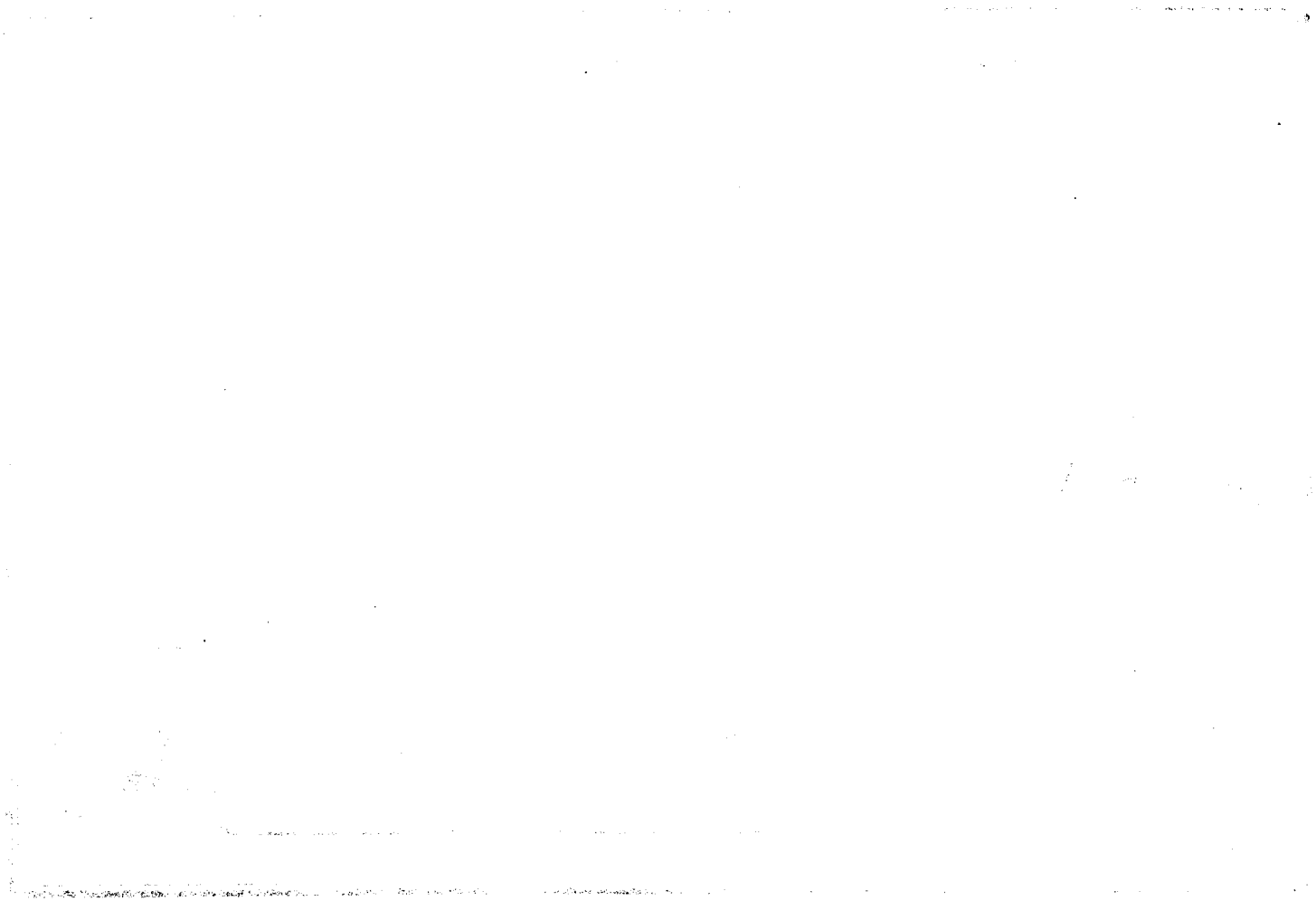

الأزهر الشريف
حارس الثقافة الإسلامية عبر القرون

- دار الحكمة أو دار العلم
- اهتمام العزيز بالله الفاطمى بالعلم والتدوين
- إنشاء المدارس المتخصصة فى العهد الأيوبى
- نظام الحلقات الدراسية فى الأزهر
- الجامعات الأوروبية تأخذ بنظام الحلقات
- الأزهر ومقاومة الاحتلال الفرنسى
- محمد على وبدايات الإصلاح والتطوير للأزهر
- الإمام محمد عبده وحركة الإصلاح
- التطور فى القرن العشرين
- الأزهر أعرق جامعات العالم
- الأزهر المعاصر وآفاق المستقبل

إعداد

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح مصطفى السيد غنيمة

أستاذ تاريخ وفلسفة العلوم والتكنولوجيا
ورئيس قسم الفلسفة بآداب المنوفية
وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. لجنة العلم والحضارة
وعضو اللجنة القومية لتاريخ العلوم والحضارة

الأزهر الشريف
حارس الثقافة الإسلامية عبر القرون

يعد الأزهر أول عمل فنى معمارى أقامه الفاطميون ولا يزال قائماً حتى اليوم. ولقد سبقه إلى الوجود ثلاثة جوامع كبيرة كان لكل منها دوره التـــاريخى: جمـــاع عمرو وجامع العسكر وجامع ابن طولون، وقد آل أمرها جميعاً إلى مرد مســـاجد جامعة للعبادة، وشواهد على المعمار والآثار الإسلامية.. بينما بقى الأزهر الـــذى شيد بعدها شمساً ى سماء الإسلام: حضارته وعلومه وأمجاده.

كان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية على النحو الذى كان متبعاً فى إنشاء القواعد الإسلامية الأولى. أنشئ الجامع الأزهـــر ليكـــون مســـجداً رسمياً للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ومنبراً لدعوتها الدينية ورمزاً للســـيادة الروحية.. ولا يوجد بين معاهد العالم العلمية كلها سواء فى الشرق أو الغرب معهد يستطيع أن يفاخر الأزهر بتراثه العلمى العريض الذى لبث أكثر من ألف عام ينثره من حوله، ولاسيما فى أقطار العالم الإسلامى، ولم يبذل أى معهد علمى فى الشـــرق أو الغرب، ما بذل الأزهر من جهود عظيمة للمحافظة على علوم الديـــن واللغـــة، ولاسيما عقب سقوط الخلافة الإسلامية فى بغداد، وعقب سقوط الأندلس الإســـلامية فى يد أسبانيا، ثم فى خلال العصر التركى، فقد لبث الأزهر حصنا لعلـــوم الديـــن واللغة العربية، خلال ما توالى على العالم العربى و الإسلامى فى تلـــك الأوقـــات العصيبة من مختلف الأزمات والمحن القومية. وإلى جانب المكانة العلمية التى كان يتمتع بها الأزهر كانت له أهمية رسمية خاصة، ففيه كان جلوس **قاضى القضاة** فى أيام معينة، وفيه كان مركز **المحتسب** العام، وفيه كانت تعقد كثير مـــن المجـــالس الخلافية والقضائية.

وقد قضت ضرورات الصراع السياسى أن تسارع الدولـــة الفاطميـــة بعـــد أن تأسست فى شمال إفريقيا ونقلت عاصمتها إلى مصر.. إلى تأسيس هـــذا المســـجد العظيم ليكون مظهراً لسلطان الشيعة الدينى والسياسى والاجتماعى. وقد فرغت من بنائه بعد عامين (٣٥٩-٣٦١هـــ)(٩٧١-٩٧٣م). وكأن الله قد اختاره لأكثر مـــن هذه. فما فتئ حتى فتح أبوابه لعلوم القرآن والسنة والفقه وللمذاهب السنية.

وإذا كان أصحاب الدولة الفاطمية قد أرادوا من الأزهر كمقصـــد وأســـاس أن يكون مهداً لنشر دعواتهم الشيعية ما بين تعاليم علنية وأخرى سرية ورمزية. فقـــد كان ذلك سبباً فى أن يمر الأزهر بأزمات مختلفة فى عصور مختلفـــة. وجـــدّ ولاة الأمور فى جعل الأزهر أهم مكان لنشر التعاليم الشيعية. وأقاموا للإشـــراف علـــى توجيهها من كبار العلماء ما يسمونه داعى الدعاة، وأحياناً كـــانوا يســـندون إليـــه منصب قاضى القضاة أرفع مناصب الدولة بعد الوزارة.

أما تمويل هذه المؤسسة الضخمة للقيام بأغراضها العظيمة المتعددة، فقد كان الركن الأكبر فيه يأتى من الأوقاف والأحباس الكبيرة يقفها عليه الخلفاء وأهل البر من الأثرياء والأغنياء، وكانت هذه الموارد الضخمة تنفق فى مرتباب المشرفين والخطباء والأئمة والمدرسين ولكى يستظل بمظلتها الطلاب يتعلمون ويطعمون ويكتسون ولكى تنشئ الأروقة للسكنى. ورصدت الأوقاف أيضاً لفرش المسجد وإنارته وصيانته ونظافته وحاجاته من المياه، وفى غير ذلك من وجوه الإنفاق. ومن هذه الموارد المالية حصيلة كانت تسمى "**مال النجوى**" كان أفراد الطائفة الإسماعيلية يسخون فى بذلها كلما جمعتهم المحاضرات التى تلقى فى مجالس الدعوة.. وكانت تدفع طوعاً وبلا تحديد ويصل تبرع الواحد أحياناً إلى عشرات الدنانير.. لكى يتفضل الخليفة بإعطائه ورقة مزينة بتوقيعه ودعاء الخليفة كى يبارك الله فيه وفى ماله وولده ودينه. ولعل تسمية هذه التبرعات بمال "النجوى" يرجع إلى النص القرآنى: "**يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم**". المجادلة الآية ١٣.

وقد اهتم خلفاء الفاطميين بتطوير عمارة الأزهر وإلحاق المؤسسات به لينهض بحاجات الناس إليه على اختلاف العصور، كما اهتموا بتكوين المجامع العلمية والدراسية والقرآنية، وأجروا على العلماء والطلاب الأرزاق والمرتبات التى تتيح التفرغ للدراسة والتحصيل. ولم يلبث الأزهر أن لقى إقبال المجتمع الإسلامى كله فى تعاون وتضحية وجهاد لرفع شأنه، وجعله القاعدة الأولى لحفظ تراث الإسلام الدينى والثقافى والأخلاقى. واصبح مما يزيد فى مجد الحاكم أن ينسب إليه الإصلاحات والتجديدات والترميمات التى يقومون بها نحو الأزهر... لكى يصبح أكبر جامعة علمية فى الشرق تدرس فيها العلوم الإنسانية كلها، ويصبح الأزهر الجامعة الإسلامية الأولى

وإنه لمن الحقائق المعروفة أن الجامع الأزهر لم ينشأ ليكون معهداً للقراءة والدرس، وإنما أنشأه جوهر الصقلى منشئ القاهرة المعزية ليكون مسجداً جامعاً للعاصمة الفاطمية الجديدة، وقد كان المسجد الجامع دائماً منذ نشأة الأمصار الإسلامية عنوان الدولة الجديدة، ومنبراً لدعوتها الرسمية، وقد اقترن إنشاء "جامع القاهرة" بنفس البواعث والظروف، أما فكرة الدراسة بهذا الجامع، فقد كانت حدثاً عارضاً ترتب على فكرة الدعوة المذهبية، وغلب الحادث العارض شيئاً فشيئاً على صفته الأزلى حتى أسبغ عليه ثوبه الجامعى الخالد.

ففى صفر سنة ٣٦٥هـ (أكتوبر ٩٧٥م) فى أواخر عهد المعز لدين الله جلس قاضى القضاة **أبو الحسن على بن النعمان القيروانى** بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت، وهو المسمى بالاختصار فى جمع حافل من العلماء والكبراء، فكانت هذه أول حلقة درس بالجامع الأزهر، ثم توالت حلقات بنى

النعمان بالأزهر بعد ذلك، وكان بنو النعمان من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية، وجعلتهم دعامتها وألسنتها الروحية، فلحقوا بها إلى مصر، واستأثروا في ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن. وكانت حلقات أولئك العلماء المغاربة بالأزهر وبالقصر حلقات دعاية دينية وسياسية، تعقد في الغالب للأكابر والخاصة ولم تكن لها في البداية صفة الدروس العامة.

وفي أوائل عهد العزيز بالله حدث بالجامع الأزهر حادث جامعي آخر، ففي رمضان سنة ٣٦٩هـ/٩٨٠م، جلس **يعقوب بن كلس وزير المعز لدين الله** ثم وزير ولده العزيز من بعده بالجامع الأزهر، وقرأ على الناس كتاباً ألفه في الفقه الشيعي متضمناً ما سمعه في ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز وهو المعروف "**بالرسالة الوزيرية**" وكان يجلس لقراءته بنفسه في الناس خاصتهم وعامتهم، ويهرع إلى سماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر والدولة، وكان ابن كلس شخصية ممتازة تجمع بين السياسة والعلم. وكانت مجالسه في الواقع أول مجالس جامعية حقة عقدت بالجامع الأزهر، وكانت تمتاز عن مجالس بني النعمان باتجاهها نحو الغايات العلمية قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية.

والظاهر أن الوزير ابن كلس، هو أول من فكر في اتخاذ الجامع الأزهر معهداً للدراسة المنظمة المستقرة، ففي سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨م) استأذن هذا الوزير الخليفة العزيز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه. ويعقدون مجالسهم بالجامع في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر. وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيهاً، ورئيسهم ومنظم حلقتهم الفقيه "أبو يعقوب" قاضي الخندق، وكان حديثهم في الفقه وما إليه. ورتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات حسنة، وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر، وخلع عليهم في يوم عيد الفطر، وحملهم على بغلات تشريفاً لهم وتكريماً. ثم تقدمت الدراسة وتنوعت موضوعاتها حتى صار المسجد قبلة العلماء المتبحرين والفلاسفة الممتازين، لكن الدراسة فيه لم تخضع لمنهج، وكانت دراسة حرة يجلس الأستاذ على كرسي ويلتف طلابه حوله، وكانت الدراسة تقوم على النقاش والحوار بين الطلبة والأستاذ، ويصف ذلك علي باشا مبارك في خططه: كان في السابق لكل أهل مذهب من المذاهب الأربعة أعمدة معينة لا يجلس في التدريس بها غيرهم، ولكل شيخ من كل مذهب عمود معين لا يتعداه ولا يتعدى عليه آخر... ويبدأ الشيخ بالبسملة والحمد لله والصلاة على النبي ثم يقرر البدء في الدرس، ويسأل الطلاب فيما بدا لهم وبعد ختم الدرس، يقومون بتقبيل يده ولو كانوا كباراً. وكان لا يتصدى للتدريس إلا من مارس العلوم المتداولة بالأزهر وتلقاها من أفواه المشايخ.

وهنا نجد أنفسنا أمام حادث جامعي حقيقي، فقد كان هذا الجمع من الفقهاء أول الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر، وأجرت عليهم الدولة أرزاقاً ثابتة، وباشروا مهمتهم تحت إشرافها بطريقة منتظمة مستقرة، وإذن فنحن نستطيع القول

بأن الأزهر يكتسب عندئذ لأول مرة صفته العلمية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة وأنه يبدأ حياته الجامعية الحافلة المديدة.

والمسألة الثانية التى يجب التنويه بها هو أن الجامع الأزهر كان يسمى منذ إنشائه بجامع القاهرة، وكان هو فى الواقع مسجدها الجامع، وكان هذا الاسم يطلق عليه أيام الدولة الفاطمية حتى عصر متأخر، والظاهر أن اسم الأزهر أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عصر العزيز بالله. فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة، ومنها أطلق على جامع القاهرة – وهو مسجد الدولة الرسمى – اسم الجامع الأزهر. وأما أصل التسمية فالظاهر أنها ترجع إلى اسم السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله وعليه وسلم وهى التى يرجع الفاطميون نسبتهم إليها، وربما تيمناً باسمها...

دار الحكمة أو دار العلم:

وقد كان لابد بعد أن شغل الأزهر بمهامه الجامعية الجديدة، وتحولت مجالس الدعوة إلى القصر، أن ينشأ معهد جديد للعناية بهذه الدعوة، وهذا ما قام به الحاكم بأمر الله. ففى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ (مارس سنة ١٠٠٥م)، **أنشئت دار الحكمة الفاطمية أو دار العلم الشهيرة**. وكانت مجالس الحكمة تعقد بالقصر وينظمها قاضى القضاة وتقرأ فيها علوم آل البيت، ويتسابق الناس إلى شهودها، ولكن الحاكم بأمر الله رأى أن تكون هذه المجالس أخص وأوسع مدى، وأن تنظم فى سلك حلقات دينية علمية متصلة، فأنشئ المعهد الجديد وسمى دار الحكمة أو دار العلم، ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد أو هذه الجامعة الغريبة فقد كانت جامعة حقة تضم عدة حلقات دينية وعلمية وأدبية. وقد أباح الحاكم المناظرة بين المترددين إلى دار الحكمة فيعقدون الاجتماعات والمناظرات، وكان الخلفاء الفاطميون مولعين بجمع كل ما يعثرون عليه من نسخ أى كتاب، وثمة عدد من المكتبات التى كانوا يتفاخرون بها ويدعون العلماء لارتيادها مثل مكتبة الناصر لدين الله والذى رعى العلم ومكتبة المعتصم بالله، وكذلك مكتبة الفتح بن خاقان ومكتبة حنين بن إسحاق ومكتبة ابن الخشاب ومكتبة الموفق بن المطران ومكتبة القفطى ومكتبة المبشر بن فاتك ومكتبة افراثيم الزقان ومكتبة عناد الأصفهانى.

وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر، وقسمت إلى عدة أقسام ومجالس لعلوم القرآن والفقه وعلوم اللغة والفلك والفلسفة والرياضة والتنجيم وغيرها، وعين لها أقطاب الأساتذة فى كل علم وفن، وحملت إليها من خزائن القصر مجموعات عظيمة من لكتب فى سائر العلوم والفنون، وكان التعليم فيها حراً على نفقة الدولة. وهرع لطلاب إلى دار الحكمة من كل صوب وأفردت للنساء فيها مجالس خاصة، واتخذت فى البداية طابعاً حراً، ودعى إليها الأساتذة من المذهبيين، ولكن أبعد عنها لأساتذة السنيون فيما بعد. ولبثت دار الحكمة مدى قرن

تنافس الأزهر فى مهمته العلمية، ثم فتر نشاطها من بعد ذلك، وفقدت كثيرا من أهميتها، ومازال أمرها فى انحلال حتى انتهى أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه إلى الأمر بإبطالها وانحلالها فى أوائل القرن السادس الهجرى لما ذاع من تدخلها فى العقائد. ثم أعيدت على نمط جديد روعى فيه تخفيف صبغتها المذهبية. بيد أنها غدت عندئذ معهدا عاديا لا يتمتع بكثير من الأهمية.

بيد أن ظهور "**دار الحكمة**" هذا المنافس القوى للأزهر كان نعمة ساقها الله إليه. فحين بدأت دار الحكمة تتخصص فى المذهب الشيعى وفى تخريج الدعاة له، وفى التعاليم السرية للمذهب والدولة، كان الأزهر يتحول من بقايا الالتزام ليتحول إلى جامعة إسلامية خالصة للإسلام كله بعيدا عن الالتزام المذهبى والتعصب السياسى.. متفرغا لعلوم القرآن والسنة والفقه واللغة وتخريج علماء على مستوى الثقافة الإسلامية جميعها. ولم يطل عمر دار الحكمة فقد أغلقت واندثرت بعد قرن واحد.. ومضى الأزهر يستكمل أصالته وشموخه..

وقد عنى الخليفة الحاكم بأمر الله عناية خاصة بالمساجد والجوامع وجدد الأزهر وأوقف عليه وعلى الجامع الحاكمى عدة أوقاف كما زوده بالتنانير والقناديل الفضية والمحاريب من الخشب الأرو التركى المزخرفة بالنقوش النباتية والهندسية غاية فى الإبداع.. أما الخليفة الحافظ لدين الله فقد أضاف مساحة أخرى للمسجد الأزهر لزيادة مساحة الأروقة، وذلك عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م.

اهتمام العزيز بالله الفاطمى بالعلم والتدوين:

تميز العالم الإسلامى فى العهد الفاطمى الذى عاصره الخليفة العزيز بالله بنهضة ثقافية إسلامية عظيمة بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية، وبفضل نضوج ملكات المسلمين فى البحث والتأليف، وتشجيع الخلفاء والأمراء لرجال العلم والأدب، وانتشار العمران واتساع أفق الفكر الإسلامى بارتحال المسلمين من أجل العلم.

وكان من أثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية ونهضت الثقافة، وزخر البلاط الفاطمى بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم، أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم لتحقيق مبادئها السياسية والحربية. وكان للجدل والنقاش اللذين قاما بين الفرق الشيعية والسنية أثرهما الواضح فى النهضة العلمية التى تميز بها العصر الفاطمى. واهتم المعز والعزيز بالله بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلا عن الثقافة الشيعية التى تتصل بالدعوة الإسماعيلية كالفقه والتفسير. وكان للجامع الأزهر أثر كبير فى النهضة الثقافية فى مصر... فقد حول العزيز الجامع الأزهر إلى جامعة مفتوحة يقصدها آلاف الطلاب، يمدهم العزيز بما يحتاجونه من أقلام وورق

ومحابر، ورتب وزيره يعقوب بن كلس قوماً يجلسون فى داره لنسخ القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والأدب، فتقدمت صناعة الورق فى القاهرة أبرز مراكز هذه الصناعة، وصحب انتشار صناعة الورق تقدم فى تجليد الكتب واستخدم الصناع جلود العجول، كما استخدموا الحرير والديباج فى تجليد المصاحف، كما تقدم فن الخط العربى والتذهيب.

ومن العلماء البارزين **أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى القيروانى** الذى تخصص فى علوم اللغة والنحو وقد كلفه العزيز بالله أن يؤلف كتاباً يجمع فيه سائر الحروف التى ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وأن يقصد فى تأليفه إلى الحرف الذى جاء لمعنى، وأن يجرى ما ألفه عن ذلك على حروف المعجم، وقد ألف القيروانى كتابه فى أكثر من ألف ورقة، ومن كتبه أيضاً كتاب "التعريض".

ونبغ فى عصر العزيز بالله **أبو الحسن على بن رضوان الطبيب والفيلسوف**، الذى وضع كثيراً من الكتب فى الفلسفة والمنطق وغيرها من علوم الحكمة، وزاد عدد كتبه على السبعين كتاباً، وأصبح فى عهد العزيز رئيساً للأطباء.. وكان على بن رضوان من المجددين فى صناعته، ولم يكن عمله مقصوراً على النقل والشروح لكتب من جاء قبله من الأطباء مثل جالينوس وأبقراط، بل كانت له جوانب خصبة من التفكير والابتكار، وكان يدون مشاهداته وما دلت عليه التجارب، وكان طبيباً إنساناً يصرف اهتمامه لإسعاف الفقير والمحتاج والملهوف. وكانت حياته كلها جد وكفاح وعمل متصل.

ومن المؤرخين المعاصرين لعهد العزيز بالله فقيه مصر ومؤرخها **ابن زولاق المصرى** المتوفى ٣٨٧هـ/٩٩٧م والذى اهتم بدراسة عصره وأشهر كتبه هو فضائل مصر وأخبارها وخواصها.. ومن كتبه أيضاً قضاة مصر.

ومن الجغرافيين المعاصرين للعزيز بالله **شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى** المتوفى ٣٨٧/٩٩٧م وكتابه هو أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم.

وفى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٦م **كتب المهلبى للخليفة العزيز بالله كتاباً فى الطرق والمسالك**، وهو أول كتاب وصف السودان وصفاً دقيقاً.. وكان علماء الجغرافيا فى القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان إلا قليلاً.. وسمى المهلبى كتابه "العزيزى" نسبة إلى الخليفة العزيز بالله، وأصبح هذا الكتاب أهم مصادر الجغرافى ياقوت الحموى عند حديثه عن السودان.

ومن الشيوخ والأساتذة الذين سهروا على تعليم الطلاب والوافدين من مشارق الأرض ومغاربها أبو الحسن على بن إبراهيم الحوفى إمام العربية وصاحب **كتاب إعراب القرآن**، وابن بابشاذ النحوى وأبو محمد عبد الله بن برى إمام اللغة فى عصره، وأبو العباس أحمد بن هاشم المحدث وأبو القاسم الشاطبى إمام القراءات، والحسن بن الخطير الفارسى أستاذ الفقه الحنفى والتفسير والرياضة وعلوم اللغة والتاريخ.. وغيرهم من الرواد.. الرعيل الأول الذى نهض بعبء التعليم فى الأزهر، وأسهم بدوره فى جعله جامعة لم يكن يضارعها يومذاك جامعة أخرى فى الأرض.

واستمر الأزهر زهاء قرنين أيام الدولة الفاطمية فى تقدم ونماء، واتسعت حلقاته وتنوعت دراساته، وزاد عدد طلابه حتى تجاوزوا الآلاف. وكان - فضلا عن صفته الجامعية التى استقرت وتوطدت على مر الأيام، وفضلا عن إقامة الصلوات الرسمية فيه - مركزاً لكثير من المظاهرات والمناسبات الرسمية الأخرى. فمن ذلك أنه كان **مركز الاحتفال الرسمى بالمولد النبوى الكريم ويوم عاشوراء الحزين والليالى الوقود الأربع: وهى ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة شعبان وليلة نصفه.** هذا إلى استمراره حتى أيام الحاكم وقبل إنشاء دار الحكمة مركزاً لمجالس الحكمة الفاطمية، وقد كان يشترك فى شهودها النساء فى ركن معين خاص بهن، وكان الأزهر - كذلك - مركز المحتسب وهو من أهم المناصب الدينية فى الدولة الفاطمية، وعمله يتناول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحسبة ويجلس فى الجامع الأزهر وجامع عمرو يوماً بعد يوم.

وهكذا انتقلت دراسة الدين من جامع عمرو بن العاص وجامع أحمد بن طولون إلى الجامع الأزهر فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى، والأزهر يؤدى الرسالة التى وكلت فى الإسلام إلى المساجد الجامعة، أى التى يجتمع فيها الناس لأداء الصلاة وتلقى العلم. ولا يخفى أن العلوم الإسلامية حين تكفل الأزهر بتدريسها منذ ذلك القرن.. كانت قد بلغت السعة والشمول والدقة والعمق...

إنشاء المدارس المتخصصة فى العهد الأيوبى:

ولما انهارت دعائم الدولة الفاطمية أيام العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين واستأثر **الناصر صلاح الدين** وزير العاضد بالأمر، عمد إلى إزالة شعائر الدولة الفاطمية وكل رسومها وآثارها المذهبية، وأبطل فيما أبطل إقامة الجمعة بالجامع الأزهر فلبثت معطلة به من سنة ٥٦٧هـ إلى ٦٤٥هـ فى عهد الملك الظاهر بيبرس حيث أعيدت إقامتها بالأزهر. وعلى الرغم من صنيع الأيوبيين. فقد بقى الأزهر المعلم.. الأزهر الجامعة هادراً كالمحيط، يكتسح من طريقة العوائق.

وفى عهد الدولة الأيوبية كانت البداية الحقيقية لإنشاء المدارس فى مصر واقتدى السلطان صلاح الدين فى ذلك بما فعله الملك العادل نور الدين زنكى فى الشام من إقامة المدارس فى دمشق وحلب. وكانت أول مدرسة أقيمت بمصر هى **المدرسة الناصرية**، التى أنشأها صلاح الدين عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م بجوار المسجد الجامع – جامع عمرو بن العاص – وخصصها **لتدريس الفقه الشافعى**. ثم أنشأ **المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكى** وسميت القمحية نظراً لما كان يفرق على طلابها من قمح الفيوم، وهى المدرسة التى تولى فيها التدريس بعد ذلك ابن خلدون... ثم توالى إنشاء المدارس فى المدن المصرية على أيدى السلاطين والأمراء والكبراء، وكثر عددها فى القرنين السابع والثامن كثرة ظاهرة. وكان إنشاؤها فى الغالب الأعم على قاعدة التخصص فبعضها للمذهب الشافعى والبعض للحنفية والمالكية والحنبلية. ورتبت فيها دروساً للطلاب من المذاهب الأربعة. وقد نافست هذه المدارس الجامع الأزهر منافسة شديدة واجتذبت إليها الطلاب من كل صوب واتجاه خلال القرنين السابع والثامن الهجريين. واجتذبت أيضاً أعلام الأساتذة. وكانت تمتاز على الأزهر بجدتها ووفرة أوقافها واستئثارها برعاية السلاطين والكبراء ومن منشئيها.. ومن ثم كان الأزهر يمر فى هذه الفترة بحالة من السبات والركود، إلا أنه كان يتميز بالتخصص الشديد فى سائر العلوم الدينية واللغوية، وهو ما لم يكن ميسوراً فى المدارس. وظل بثقله التاريخى وجلال رسالته ينظر إلى المدارس والمعاهد على أنها بنين وحفدة له. وكان بشمول مناهجه وبرصيده العلمى ثابتاً كالجبال والرواسى. كما كان الأزهر مقصداً للطلاب الغرباء يقطنون فى أروقته، وكان الأزهر فى خلال هذه الفترة يحتفظ بمكانته الخاصة لاتساع حلقاته وأروقته وتنوع دراساته وهيبته القديمة، وما يلاقيه الطلاب من مصر من شتى أقطار العالم الإسلامى.. يجدون فيه الأب الحانى والوطن الثانى، وبه .. أى بالأزهر من أوجه التيسير والإقامة للتعليم ما يجب العلم إلى الناس. وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ، ويشغلون وظائف القضاء العليا ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد.. وكان هذا النفوذ يصل إلى مرحلة التأثير فى سياسة الدولة العليا وعلو شأن الأمراء والسلاطين.

والجدير بالذكر أن صلاح الدين الأيوبى عمل جاهداً على مؤازرة المذهب السنى، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر واكتفى بإقامتها بجامع الحاكم وظل الأزهر مهملاً ٨٧ عاماً تقريباً إلى أن أعيدت إليه الخطبة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى . ولذلك لم يهتم الأيوبيون بالأزهر من الناحية المعمارية واستمر الحال على ذلك حتى جدد الأمير **عز الدين أيبك** الأجزاء التى تصدعت فى الجامع وجمع له الكثير من التبرعات والأموال لتعمير أركانه وجدرانه وإصلاح سقوفه وتبليطه وفرشه، حتى عاد للأزهر بعض رونقه ودبت فيه الحياة. ورتب له مجموعة من الفقهاء لقراءة الفقه على المذهب الشافعى وأوقف له الأوقاف المدرة للأموال. على أن قطع صلاة الجمعة من الجامع الأزهر فى تلك الحقبة لم يبطل صفته الجامعية، فقد استمر فى مهمته كمعهد للدرس والقراءة، ولبث مقصداً يهرع

إليه الطلاب من مصر وسائر أنحاء العالم الإسلامي واستمر محتفظاً بكثير من هيبته العلمية القديمة.

وقد برز فى هذه الفترة علماء أجلاء منهم **على بن يوسف الشطنوفى، وقوام الدين الكرمانى، وشمس الدين الأصبهانى، وتقى الدين المقريزى، وابن حجر العسقلانى، وأبو العباس القلقشندى، وابن تغرى بردى، وبدر الدين العينى، وشرف الدين المناوى، وشمس الدين السخاوى، وجلال الدين السيوطى، وابن خلدون**... فلقد صار للأزهر الزعامة الفكرية والثقافية فى طول العالم الإسلامى وعرضه، ويذكر لنا المؤرخ الراحل محمد عبد الله عنان فى كتابه تاريخ الجامع الأزهر تفسير المستشرق "**فولرز**" لهذه الزعامة فيقول: منذ عدة قرون يتفوق الأزهر على جميع معاهد العالم الإسلامى، ومن أسباب هذا التفوق عبث المغول وتخريبهم فى البلاد الخارجة عن مصر والقضاء على الحضارة الأندلسية، ويجب أن نضيف إلى ذلك موقع الجامع وقربه من الحجاز وصبغته العربية المحضة، وأهمية البلاد الاقتصادية، والقارة الأفريقية العظمى. وأخيراً الازدهار العقلى القديم الذى ترك فى وادى النيل كثيراً من البذر الصالح لتقدم العلوم والآداب.

نظام الحلقات الدراسية فى الأزهر:

يوجد فى كتب المؤرخين للعصر ما يدل على أن الأزهر كان خلال هذه الحقبة يحتفظ بمكانة خاصة، يعاونه فى ذلك اتساع حلقاته وأروقته، وسارت النظم التعليمية فى الأزهر على نظام الحلقات ما يقرب من ألف عام. يرجع ذلك إلى أن هذا النظام المأثور كان فى عهد الرسول صلى الله وعليه وسلم مع فارق ضئيل هو أن الحلقة فى عهده صلى الله وعليه وسلم لم يكن المعلم يجلس بجوار عامود أو على كرسى كما هو فى الأزهر.

الجامعات الأوروبية تأخذ بنظام الحلقات:

والظاهر أن نظام الحلقة الدراسية قليل التكلفة الاقتصادية.. لا يحتاج أكثر من مكان من أرضية المسجد المفروشة بأى أسلوب. الحصير أو الكليم أو السجاد.. دون أى تكاليف إضافية، كما أن نظام الحلقة يحقق وظيفة المسجد فى الصلوات والتعليم معاً. ولقد أخذت الجامعات الأوروبية التى تقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها وعلومها بهذا النظام وهى جامعات لندن وأكسفورد وكمبردج وديرهام وايكيستر ولانكستر وماتشستر وسانت أندروز وأدنبره وليزوباث وأخذت بنفس النظام مع تطويره قليلاً جامعة السربون بفرنسا وهارفارد بالولايات المتحدة ولأن هذا النظام يضفى الاحترام للمعلم والقدسية ويحقق الترابط والالتحام بين الطلاب.

وكان العلماء المدرسون بالأزهر يختارون أماكن يجلسون فيها على كراسى خشبية بسيطة ويحف بهم الطلبة فى شكل حلقات حسبما يختار كل معلم لنظام

حلقته. وأحياناً يبدأ المعلم بالقراءة فى كتاب مقرر ثم يقوم بشرح العبارات التى قرأها ثم يعقب بالمناقشة والحوار الهادف حتى يتأكد المعلم من تحصيل غالبية الطلاب للجوانب العلمية المطلوبة. وأحياناً يختار المعلم أحد الطلبة ليقرأ بعض عبارات من الدرس. ثم يقوم بالشرح وإبداء الملاحظات ويختار من يعين على الطلبة ما قد يكون قد فهمه ليناقش الجميع فى حوار طيب يتخلله الكثير من التعليقات التطبيقية فى الحياة... وكان الأستاذ أحياناً يملى عل الطلبة ومن حصيلة ذلك ظهرت فى تراثنا العربى مجموعة من الكتب بعنوان الأمالى مثل **أمالى القالى وأمالى المرتضى.**

ومما ساهم فى علو الكيان العلمى للأزهر وتنوع دراساته وهيبته القديمة وما يلاقيه فيه الطلاب، من أسباب التيسير فى الدراسة وأيضاً فى الإقامة. وقد غدا الأزهر - منذ أواخر القرن السابع أعنى منذ قضى التتار على بغداد وخربت معاهدها وسقطت قرطبة وغيرها من حواضر الأندلس فى أيدى الأسبان - كعبة الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامى، نوعاً من الزعامة الفكرية والثقافية، وفى أنباء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر كان يتمتع فى دولة السلاطين برعاية خاصة، وكان الأكابر من زعمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ ويشغلون وظائف القضاء والإمامة العليا، وكان هذا النفوذ يصل أحياناً إلى التأثير فى سياسة الدولة العليا، وأحياناً فى مصاير الأعيان والأمراء والسلطان. وربما كانت هذه الفترة فى الواقع هى عصر الأزهر الذهبى من حيث الإنتاج العلمى الممتاز ومن حيث تبوءه مركز الزعامة العلمية والنفوذ الثقافى.

وكانت كبريات الوظائف يتقلدها شيوخ الأزهر مع شرف الاستمرار فى التدريس بالأزهر، وكان الأزهر موئلاً وملاذاً ومسجداً حراماً يلوذ به المضطهدون السياسيون فى بلادهم. وكانت جماهير الشعب تستجير بعلمائه من كل ظلم يقع عليهم من الولاة والحكام..

وكان لشيخ الأزهر نفسه مكان فى حلقات الدرس، إذ كان التقليد يشمله دون استثناء فلم تكن أعماله الإدارية بالقدر الذى يشغله عن التدريس وكان الشيخ الأكبر من العلماء لا من الطلاب الناشئين. ومن أبرز من ألقوا دروساً فى الأزهر أو تلقوا العلم به ابن الهيثم (٣٥٤-٤٣٠هـ) المشهور بعلمه الواسع فى الهندسة والرياضة والضوء إلى جانب شهرته فى الطب والفلسفة.

ونظام الحلقات كان متبوعاً حول العلماء فى المساجد الأخرى القريبة من الأزهر لضيقه عن ضيافة كل طلاب العلم. ومن الجدير بالذكر أن الحرية العلمية كانت سائدة فى البيئة الأزهرية فى أوسع معانيها، فالمواد الدراسية معلومة للجميع والمدرس يختار الكتاب الذى يرتضيه ويبلغ مشيخة الأزهر عن اختياره وعن

مكانه لتكون على علم بشأنه. والطلاب من حقهم اختيار الشيخ الذى يتقيدون أمامه وللطالب حق تغيير اختياره دون إلزام بمعلم أو مدرس معين.

وكانت العادة أن علوم الدين غالباً تدرس فى الصباح الباكر كتفسير القرآن وسنة الرسول صلى الله وعليه وسلم والفقه على مذاهب أهل السنة. أما بقية العلوم فكانت تدرس غالباً فى متسع النهار. وحكمة التبكير بعلوم الدين تحصيل كثرة الثواب بالاستفتاح بها لاعتبارها أدخل فى باب التعبد، ولذلك القصد ينشط العلماء والطلاب إلى هذه الحلقات عقب صلاة الفجر، كما كانت العلوم الأخرى تحصل عقب صلوات الظهر والعصر. وهناك دروس اختيارية للشيوخ عقب صلاة المغرب.. ولطالما نشط الطلاب فى غير أوقات الدروس للمناقشة والفهم والوصول إلى الحقائق العلمية بالمناظرة. مبتعدين عن خواطر اللهو أو مضيعة الوقت.

ومن هنا كانت هذه الحريات حقلاً رحيباً لتنمية القرائح الخصبة، ولكى يتجه الطالب الأزهرى بعلمه وتقواه وأخلاقه إلى جوانب الدنيا.. **وكان الشيخ محمد عبده رحمه الله يقول: الأزهر يخدم النبوغ ولا يخلق النبوغ.**

أما مواد الدراسة بالجامع الأزهر فقد كانت تتردد طوال هذه العصور بين الأصلين القديمين، وهما الدين واللغة. فكان يدرس القرآن والحديث والتفسير والكلام والأصول والفقه على مختلف المذاهب. هذا عن الأصل الأول.. أما عن الأصل الثانى وهو اللغة، فكانت تدرس علوم اللغة من الصرف والنحو والبلاغة والبيان والبديع ثم الأدب والشعر والتاريخ. وفى العصور المتأخرة كان يدرس المنطق والطب والعلوم الرياضية، وأحياناً الموسيقى.

وكانت الدولة المملوكية المصرية – خلال ذلك – قد شاخت وتفككت أوصالها بالرغم مما يتبعها من مظاهر العظمة والتقدم، وكانت الدولة العثمانية الغازية فى عنفوان قوتها ونهوضها. وكانت تتطلع إلى افتتاح مصر والشرق الأوسط لتكتمل عظمة دولتها، وتتسع رحاب آفاقها وإمكانياتها، ولتضع يدها على ممر التجارة الغربية إلى أسواق الشرق، وهو الذى كانت تتمتع به مصر. وكانت مصر تشعر بهذا الخطر على حياتها، وتحاول من جانبها أن تستعد لرده. ولكن شتان ما بين القوتين، ولم يمض قليل على ذلك حتى وقعت المأساة المروعة، وانهالت الجيوش العثمانية على مصر واعتزم السلطان الغورى أن يحاول لقاءها فى أوائل حدود مصر الشمالية على مقربة من جنوب تركيا فى مرج دابق شمال الشام، ولكن الصدمة كانت هائلة فانهار الجيش المصرى وقتل السلطان الغورى، ولم يعثر على جثته، وانهارت بذلك الدولة المصرية وسقطت صريعة الغزو العثمانى وذلك فى رجب سنة ٩٢٢هـ (أغسطس ١٥١٦م) وفقدت – بذلك مصر – استقلالها التالد العريض.

وفى ظل الفتح العثمانى انهار صرح الحركة الفكرية فى مصر الإسلامية كما انهارت عناصر القوة والحياة فى المجتمع المصرى. وتضاءل شأن العلوم والآداب، واختفى جيل العلماء والكتاب الأعلام، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التى أظلتها دولة السلاطين المصرية سوى الآثار المحدودة التى يبدو شعاعها الضئيل من وقت إلى آخر.

وأصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور فاضطربت أحواله، ونضبت موارده تباعاً، وانخفض عدد أساتذته وطلابه، وانكمشت حركة التعليم كلها، سواء فى الجوامع أو المدارس، ولجأ كثير من العلماء والطلاب إلى أقاصى الصعيد بعيداً عن عسف الفاتحين وظلمهم، وقامت هناك فى فقط وقوص وغيرهما حركة علمية وأدبية محلية.

لقد استطاع الأزهر أن يثبت وجوده ويبلغ ذروته فى القرن التاسع الهجرى/ ١٥م، وكان ذلك على أثر الحوادث العالمية وبخاصة ما كان يدور منها فى الأقطار الإسلامية. فكان زحف التتار على بغداد، وحملات الصليبيين على دول الشرق، واضطهاد الأسبان للمسلمين فى الأندلس، عاملاً من أهم العوامل لفرار الناس بدينهم، يبتغون مأوى آمناً يجدون فيه العيش ويتمكنون فيه من أداء العبادة وتلقى العلم. وكانت مصر بأزهرها هى أفضل مكان تحقق فيه هذه الرغبات وقد برز من العلماء فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى كثير منهم:

ابن دقيق العين	٧٠٢هـ/١٣٠٢م
والنويرى صاحب مسالك الابصار	٧٤٨هـ/١٣٤٧م
وتقى الدين السبكى	٧٥٦هـ/١٣٥٥م
والبلقينى	٨٠٥هـ/١٤٠٢م
والدميرى صاحب موسوعة الحيوان	٨٠٨هـ/١٤٠٥م
والقلقشندى صاحب صبح الأعشى	٨٢١هـ/١٤١٨م
والمقريزى	٨٤٥هـ/١٤٤١م
وابن حجر	٨٥٢هـ/١٤٤٨ وغيرهم.

لقد كان الأزهر فى هذا الوقت يدرس ثقافة العصر ويلم علماؤه بجميع العلوم الدينية والعربية وما يعيش معها من علوم الرياضة والفلك والطب والموسيقى. وكان اتساع صدره لجميع العلوم والفنون يرجع إلى طبيعة الدين الإسلامى فى حثه على تحصيل العلم أياً كان... مادام يفيد الناس والمجتمع فى الدين والدنيا سواء ما كان منه متصلاً بالكتاب والسنة أو العقيدة والأحكام والأخلاق أو موصلاً إلى معرفة هذه الأمور أو معيناً على تحصيلها وفهمها.. تحقيقاً لقول الله تعالى "ألم تر

أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألونها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء" (سورة فاطر).

إن الجامع الأزهر كان يقوم عندئذ فى ظل هذا الأفق القاتم، بأعظم وأسمى مهمة أتيح له خلال تاريخه الطويل الحافل أن يقوم بها. فقد استطاع خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئاً من مكانته وأن يؤثر بماضيه الطيب، وهيبته القديمة فى نفوس الغزاة أنفسهم، وأن يغدو - خلال ذلك - ملاذاً أخيراً لعلوم الدين واللغة، ويغدو بنوع خاص معقلاً حصيناً للغة العربية تحتفظ فى أروقته بكثير من وقتها وحيويتها، ويدرأ عنها - بجهود علمائه وطلابه - عادية التدهور النهائى ويمكنها من مغالبة لغو الفاتحين ومقاومتها، وردها عن التغلغل فى المجتمع المصرى.

الأزهر ومقاومة الاحتلال الفرنسى:

ثم جاء الفتح الفرنسى إلى مصر فى أول يوليه سنة ١٧٩٨ (١٧ محرم سنة ١٢١٣هـ)، فاهتزت البلاد، واهتز الأزهر لهذا الحدث الجديد، وأخذ يتأهب لاسترداد عزمه القديم للمشاركة فى الأحداث العامة، وبعث المشايخ فى الحال رسالة إلى رئيس معسكر الفرنسيين فى الجيزة يسألونه عن مقاصدهم، وأسفرت المحادثات التى جرت بين الرسل وبين الفرنسيين عن إصدار الفرنسيين لخطاب لأهل مصر بالأمان وتوكيد نيات الفرنسيين الطيبة. وطلب نابليون القائد العام حضور المشايخ والزعماء ليؤلف منهم ديواناً لتدبير الأمور هم أهل التوقير والاحترام بحق العلم والمعرفة وحق الورع والتقوى وحق الخلق الكريم والحكمة الراجحة. وكان مسلك نابليون نحوهم وتودده إليهم بأنهم مناط القدوة الاجتماعية ومرجع الطاعة والاعتبار للهيئة الحاكمة، وأسفرت المباحثات عن تأليف الديوان الأول المؤلف من تسعة أعضاء فى مقدمتهم الشيخ **عبد الله الشرقاوى** (١٧٩٣-١٨١٢) شيخ الجامع الأزهر وعدد آخر من زملائه. وقد تولى المشيخة فى مرحلة من أهم مراحل التاريخ المصرى، وأبلى بلاءً حسناً فى حفاظه على الأزهر وحمايته وتعبئة الشعب ضد المستعمر الفرنسى

واستمر الأزهر فى الطليعة أيام الاحتلال الفرنسى، ينادى بتحرير البلاد وذهاب المحتلين، ويؤلف الوفود وينظم المظاهرات والمطالبة بالتحرير والجلاء حتى برم المحتلون بنشاطه وسعاياته، وضربوا الأزهر والحى الأزهرى بالمدافع ثم احتلوا الأزهر بخيولهم بعد ذلك على مدى ثلاثة أيام، وقبضوا على عدد من المشايخ المتهمين بالتحريض، وحاكموهم وأعدموهم سراً، رغم كل ما بذله زملاؤهم لدى السلطات لتحريرهم وإنقاذهم. يذكر التاريخ هؤلاء الشهداء بكل تقدير واحترام وهم الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى

والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ إسماعيل البراوى

ولما هدأت الأحوال نوعاً ما، أصدر صارى عسكر (نابليون) قراراً بإنشاء ديوان جديد أوسع نطاقاً من الديوان القديم، وجُعل أعضاؤه تسعين بدلاً من عشرة ودخل فيه إلى جانب العلماء ممثلون للطوائف الأخرى من الجند والتجار والأقباط والأجانب ولم يمض قليل على ذلك حتى اضطر نابليون إلى مغادرة مصر لمعالجة الأحوال فى أوروبا. وترك - مكانه لرياسة الحملة الفرنسية بمصر - نائبه الجنرال كليبر.

واستمر الأزهر على موقفه فى تحدى الغزاة ومقاومتهم بسائر الوسائل الممكنة والشعب من حوله يلبى نداءاته لتأليف المظاهرات، وفى خلال ذلك تمّ قتل الجنرال كليبر (صارى عسكر) أثناء تجوله فى حديقة منزله، على يد طالب أزهرى قديم جاء لقتله خصيصاً من بلده حلب ويسمى سليمان الحلبى، فكان للحادث دوى عظيم، وأسفر التحقيق عن سؤال عدد من الطلاب والأساتذة وقبض على عدد منهم. وأسفرت محاكمة سليمان عن الحكم بإعدامه وإعدام ثلاثة طلاب آخرين ممن كانت لهم صلات به قبل ارتكاب الجريمة وهم عبدالقادر القرى ومحمد القرى وعبدالله القرى الذين حكم عليهم بالإعدام فوق الخازوق، وساد بذلك جو من الرعب والخشوع.

ورأى شيخ الجامع الأزهر الشيخ الشرقاوى وزملاؤه أن يوضع حد لهذه الحوادث المزعجة وأن يغلق الجامع الأزهر، وتم ذلك بموافقة الجنرال مينو الحاكم الجديد، وأغلق الجامع إغلاقاً محكماً من سائر أبوابه ومخارجه واستمر ذلك نحو عام، حتى تم الصلح بين الإنجليز والفرنسيين وتم جلاء الفرنسيين عن مصر، وأعيد فتح أبواب الجامع ومداخله وافتتح بتأدية صلاة الجمعة وحضور الأعيان والمشايخ وكان لذلك أطيب وقع فى النفوس. ويذكر الجبرتى الذى تعلم بالأزهر ثم صار من هيئة التدريس فيه يذكر أن كبار العلماء قاموا بتبعاتهم الجسام ذد الاحتلال الفرنسى وقد ألف كتاب عجائب الآثار فى التراجم والأخبار وكتاب مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس.

محمد على وبدايات الإصلاح والتطوير للأزهر:

وتطورت الحوادث الداخلية فى مصر وانتهت بتقلد محمد على ولاية البلاد عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، وبدأ محمد على فى التعليم سياسة جديدة، فانصرف عن الأزهر ونزع سائر الأملاك التى كانت موقوفة عليه، فضاقت أحواله وانصرف معظم طلابه. ومن جهة أخرى فإن محمد على اتجه إلى تنظيم البعثات الخارجية من الطلاب الأزهريين إلى مختلف بلاد أوروبا، وأبدى فى ذلك همة مضاعفة،

وعلق اعتماده فى تعليم البلاد وتثقيفها على هذه الأفواج العديدة من طلاب البعثات، وكان هذا عملاً جليلاً بلا ريب ولكنه كان عملاً من جانب واحد، أما الأزهر فقد ركدت ريحه وانصرف عنه معظم طلابه. ولبث خلال القرن التاسع عشر يتردد بين مختلف الآراء والاتجاهات ويحاول ولاة الأمر أن يتداركوه بالإصلاح. فى عام ١٨٧١ قدم إلى مصر المصلح الإسلامى الكبير **جمال الدين الأفغانى** وأخذ يعقد حلقاته المشهورة يشرح فيها علوم الكلام والفقه والفلسفة والمنطق وغيرها بطريقة مبتكرة، والتف حوله النوابغ من الطلاب والشيوخ الأزهريين، فكانت هذه الحلقات حدثاً فكرياً واجتماعياً لتغذية وتنمية الروح الجديدة التى بدأت تسرى فى الحركة الفكرية الإسلامية.. وظهرت أولى آثار هذا التطور فى الأزهر، فقد صدر أول قانون نظامى للأزهر عام ١٢٨٨هـ/١٨٧٢م فى عهد **الشيخ محمد المهدى العباسى** (١٨٧٠-١٨٨٧م) وقد نظم هذا القانون طريقة الحصول على الشهادة العالمية، ونص على أن يمنح الناجح من الدرجة الأولى كسوة التشريف العلمية. وكان هذا القانون أول خطوة جادة علمية وعملية فى تنظيم الحياة الدراسية بالجامع الأزهر.. وهكذا. صدر هذا القانون فى سبيل الإصلاح فى عهد الخديوى إسماعيل. وقد نظم هذا القانون أيضاً المواد العلمية والمناهج للشهادة العالمية ورتبها على ثلاث درجات أولى وثانية وثالثة وقرر أن تكون المواد التى يمتحن فيها الطلاب هى الآتية: الأصول، الفقه، التوحيد، الحديث، التفسير، النحو، الصرف، المعانى، البيان، البديع، المنطق. ورغم أن هذا القانون كان لتنظيم الحياة الدراسية بالجامع الأزهر، بيد أنه لم يحقق الإصلاح المنشود.

الإمام محمد عبده وحركة الإصلاح:

وفى أوائل عهد عباس الثانى ظهرت بالأزهر حركة إصلاحية جديدة قوامها وروحها الشيخ محمد عبده وكانت نتيجة هذه الحركة أن صدر عام ١٣١٤هـ/يناير سنة ١٨٩٦ قانون كساوى العلماء وأضيفت إلى مواد الدراسة طائفة من المواد الجديدة تشمل الأخلاق، مصطلح الحديث، الحساب، الجبر، العروض القافية. وجعل التاريخ الإسلامى والإنشاء ومتن اللغة ومبادئ الهندسة وتقويم البلدان مواد يفضل المشتغل بها على غيره. وهكذا وفى نهاية القرن التاسع عشر بدأن الحكومة تتدخل فى إصلاح الدراسة بالأزهر، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية. فقد عمل على أن تقوم الدراسة بالأزهر على دعائم ثابتة وذلك بان تخصص الحكومة رواتب ثابتة للمدرسين. كما عمل على إنشاء كثير من المعاهد الدينية التابعة للأزهر بعواصم المديريات. وفى عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م صدر قانون آخر نقل إلى الأزهر جميع المواد التى كانت مقررة فى المدارس الابتدائية والثانوية وبعض المدارس العليا ما عدا اللغات الأجنبية.

التطور فى القرن العشرين:

ولما تطور الأزهر منذ عام ١٩١٠ بدأ يأخذ نصيبه من التقاليد المستحدثة فامتزجت مناهجه الدراسية بالعلوم الحديثة واقتضت النظم أن تنشأ فيه أماكن للدراسة على نحو المدارس.. وخرجت الحلقات من رحاب الأزهر والمساجد إلى غرف المدارس والمعاهد.

وفى سنة ١٩١١ على أثر اضطرابات الأزهر المعروفة صدر القانون الجديد رقم ١٠ فى عهد المشيخة الثانية **للشيخ سليم البشرى**(١٩٠٠-١٩٠٩/١٩٠٠-١٩١٦)، فانتقل به الأزهر إلى مرحلة أخرى من التنظيم. إذ لقى فيه على اختصاص شيخ الجامع الأزهر وأنشئ للجامع مجلس تحت رياسة شيخه يسمى مجلس الأزهر الأعلى، ووضع فيه نظام لهيئة كبار العلماء. وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخ ولكل معهد من المعاهد مجلس إدارة. كما أن هذا القانون الجديد للأزهر أخذ ينظم الدراسة على أسس جديدة وبمقتضاه قسمت الدراسة إلى مراحل لكل منها نظام ومواد خاصة، وأضاف هذا القانون إلى مواد الدراسة مواد جديدة هى التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادئ الطبيعة والكيمياء.

وتوالت على هذا القانون تعديلات عديدة كان آخرها وأهمها القانون الصادر فى سنة ١٩٣٠ وهو يتناول الكلام على الجامع الأزهر والمعاهد الملحقة به وعلى الرئاسة الدينية وهيئة كبار العلماء، وفيه يعرف الجامع الأزهر بأنه يشمل كليات التعليم العالى وأقسام التخصص، وأن هذه الكليات هى ثلاث، كلية الشريعة وكلية أصول الدين. كلية اللغة العربية وأن التخصص نوعان: تخصص فى المهنة وتخصص فى المادة، ويتناول الباب الثانى مراحل التعليم وهى تقسم إلى أربع: الابتدائى ومدته أربع سنوات، والثانوى ومدته خمس سنوات، والعالى ومدته أربع سنوات وهى مرحلة الدراسة بإحدى الكليات، وقد كان هذا القانون فى الواقع خطوة حاسمة فى القضاء على نظم الدراسة القديمة بالأزهر وإنشاء ما يسمى اليوم بالجامعة الأزهرية.

وفى سنة ١٩٣٦ صدر قانون جديد للأزهر يعتبر متمما للقانون السابق، وهو يفصل مراحل التعليم ومدة كل منها، وتفاصيل المراحل النهائية والإجازات وأقسام التخصص للإعداد للحصول على شهادة العالمية والمواد التى تدرس فى كل مرحلة. وأطلق اسم الجامع الأزهر فى هذا القانون على الكليات الأزهرية وأقسام الإجازات والتخصص وألحقت به معاهد التعليم الابتدائى والثانوى بالقاهرة والإسكندرية، وباقى العواصم الإقليمية.

على أن ذلك لم يكن كل شئ فى تنظيم التطور الجامعى بالأزهر. ذلك أنه فى الخامس من مايو سنة ١٩٦١، صدر لتنظيم الأزهر قانون جديد شامل للتطور

الجامعى الذى أسبغ على الجامع الأزهر، هو القـانون رقـم ١٠٣ لسـنة ١٩٦١، وبمقتضاه يصبح الأزهر جامعة كبرى تشتمل على عشر كليات هـى الآتيـة: (١) كلية الشريعة والقانون، (٢) كلية أصول الدين، (٣) كلية اللغة العربية، (٤) كليـة المعاملات والإدارة، (٥) كلية الهندسة والصناعات، (٦) كلية الطـب، (٧) كليـة الزراعة، (٨) كلية البنات الإسلامية، وأنشئت كليتان أخريان جديدتان همـا كليـة العلوم وكلية التربية وأنشئ معهد اللغات والترجمة وألحق بكلية اللغة العربية.

وأعيد نظام الحلقات الدراسية تحت اسم "معهد الدراسات العربية والإسـلامية" وجعلت كلية البنات الإسلامية بمثابة جامعة خاصة تشتمل على الأقسام الآتية:-

(١) الطب، (٢) العلوم، (٣) التجارة، (٤) الدراسات الإسلامية، (٥) الدراسـات العربية، (٦) الدراسات الاجتماعية والنفسية، (٧) اللغة الإنجليزية، (٨) الترجمـة الفورية (لغة فرنسية).

وفى ٢٩ أبريل سنة ١٩٧٢ قرر المجلس الأعلى للأزهر تعديل قانون تطويـر الأزهر الصادر فى سنة ١٩٦١ ولائحته الداخلية. ويقضى هذا التعديل بإعادة جميع اختصاصات وزارة شئون الأزهر إلى شيخ الأزهر، ورفع درجتـه إلـى درجـة "وزير" كما وافق المجلس على إنشاء فروع لجامعة الأزهر فى سائر المحافظات.

الأزهر أعرق جامعات العالم:

إن الأزهر بعمره وحياته الممتدة يعتبر أقدم جامعة إسلامية "حيـة" وإن كـان جامع القرويين بفاس، الذى أنشئت به أخيراً بعض الكليات الحديثة، يسـبقه بنحـو مائة وستين عاماً، على أن جامع القرويين أنشئ كمسجد جامع ولم ينشأ كجامعـة، ولكنه استعمل فيما بعد للدراسة على نمط المساجد القديمة. أما فى أوروبا فإنه يقـال أن **جامعة باريس أو السوربون** هى من أقدم جامعات أوروبا وأبقاها امتداداً وأثـراً وهى على عكس جامعة الأزهر مجهولة الميلاد.. ولكنها مثل الأزهر نشـأت فـى أحضان الدين ورحابه، ومرت بحالات من المد والجزر والهبوط والصعود.. شـأن مسيرة الحياة.. البداية مدرسة نوتردام افتتحها الملـك **شـارلمان** لعـالم اللاهـوت "**الكوين**" عام ٨٧٠م... وأنشأ **أبيلار** من أكبر المربيين وصاحب لقب أبو الجامعـة عدة مدارس لتعليم اللاهوت، وانتشر اسمه وذاع فى كـل أنحـاء أوروبـا عـام ١١١٦م، وتدفق على دروسه آلاف الطلاب. وغدت باريس على يديه مركز التعليـم والعلم فى أوروبا. وحين ضاقت المدرسة بطلابها أجاز رئيسها لبعض المتخرجيـن منها أن ينشئوا مدارس قريبة، باعتبارها فصولاً ملحقة... ومن هنا بدأت الإجـازة العلمية التى تجيز الاشتغال بالتعليم. وازداد عدد الطلبة وازدهرت الفلسفة والتعليـم الدينة فى باريس وبلغت الفنون السبعة ذروتها وهى: **النحو والبلاغـة والمنطـق والحساب والموسيقى والهندسة والفلك**، وانتشرت المـدارس وتعـددت وخـاف أصحابها من تحكم رئيس مدرسة نوتردام، فهو الذى يجـيز التدريـس أو يمنعـه،